مقدمة

فلسفة العقل: تعريفها ومشكلاتها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين حمدًا يوافي نعمه ويكافئ مزيده، اللهم لك الحمد فأنت أهلٌ أن تُحمد وتُعبد وتُشكر. والصلاة والسلام على نبينا محمد بن عبد الله، وآله وصحبه، وبعد:

أردت في هذا الكتاب أن أقدم دراسة فلسفية وعلمية للمسائل الأساسية في فلسفة العقل. هي فلسفية لأنها تناقش نظريات الفلاسفة في العقل مناقشة تحليلية ومفهومية ومنطقية، وهي علمية لأنها تقدم بصورة صريحة نظريات العلم في بعض موضوعات العقل مثل دراسات الوعي، ودراسات المخ، وعلم النفس، والذكاء الاصطناعي، أو تتناول العلم بصورة ضمنية عندما تلقي الضوء على الأفكار العلمية التي تتخلل النظريات الفلسفية في العقل. وهي دراسة فلسفية وعلمية معًا لأنها ستوضح كيف صارت أسئلة العقل من مجال فلسفي خالص إلى مجال علمي يعالجه العلماء الآن معالجة مدعومة بأجهزة متقدمة تتغلغل في عمق المخ.

1. ما العقل؟

يجد المتأمل في فلسفة العقل مجموعة من الكلمات التي تبدو متداخلة من جهة، وغامضة من جهة أخرى. وأرى من الخير أن نلقي عليها ضوءًا شارحًا يسيرًا يزيل التباسها ويجلي معانيها. وهذه الكلمات هي العقل، والجسم، والجسد، والبدن، والنفس، والروح. خذ أولًا الجسم، والجسد، والبدن، والنفس، والروح:

الجسم يطلق على البدن الذي فيه حياة وروح وحركة.

الجسد يطلق على الشكل الذي يشبه أشكال الأحياء، ولكنه يخلو من مظاهر الحياة، مثل التمثال الجامد، وبدن الإنسان بعد وفاته وخروج روحه.

البدن هو الجسم بعد أن انتهت منه مظاهر الحياة.

النفس جوهر غير مادي من خلق الله، تبث الحياة في الجسم، وبخروجها يموت الإنسان. ولما كانت النفس محل التكليف، أي قدرة الإنسان على اختيار التقوى أو الفجور، كان تقسيمها إلى ثلاثة أنواع: نفس أمارة بالسوء، ونفس لوامة، ونفس مطمئنة. ومن ثم فإن الإيمان والكفر من صفات النفس. وهي أيضا بيت الحياة الداخلية للإنسان من فكر أو شعور.

الروح: أمر من أمر الله، ينسبها الله إلى نفسه. وهي على خلاف النفس، لا تذم وإنما كلها خير لأنها من الله.

العَقْلُ في اللغة

العقل في العربية كما جاء في "لسان العرب" لابن منظور، و"تهذيب اللغة" للأزهري، و"أدب الدنيا والدين" للماوردي:

- العقل: الحجر والنهى ضد الحمق، والجمع عقول. وسمي العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك أي: يحبسه.
- ورجل عاقل: هو الجامع لأمره ورأيه، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه. وقيل: العاقل الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها، أخذ من قولهم قد اعتقل لسانه إذا حبس ومنع الكلام. والمعقول: ما تعقله بقلبك.
- والعقل: التثبت في الأمور. والعقل: القلب، والقلب العقل. وقيل: العقل هو التمييز الذي به يتميز الإنسان من سائر الحيوان. ويقال: لفلان قلب عقول، ولسان سؤول. وعقل الشيء يعقله: فهمه.
- والعقل هو المدرك للأشياء على ما هي عليه من حقائق المعنى.

ولعلك توافقني على أن المعنى اللغوي للعقل يدور على فكرتين. فأما أولاهما

فهي أن العقل هو الذي يعقل الإنسان. وإذا قبلنا العقل بهذا المعنى، جاز أن نسميه "العقل الوازع"، بمعنى الوازع الأخلاقي الذي يمنع عن المحظور والمنكر والحابس عن ذميم القول والفعل. وأما الثانية فهي أن العقل هو الذي يعقل الأشياء، بمعنى عَقَلَ الإنسانُ الأمرَ أو الشيءَ، أي استوعبه، ووعاه، وفهمه، ومسكه، وحفظه، وأحاطه، وناله، وأدركه. والعقل بهذا المعنى الثاني هو "العقل المُدرِك" الذي يفكر ويؤدي عمليات إدراكية منوعة، مثل إنشاء التصورات الكلية، وربطها في أحكام، واستدلال النتائج منها. والعقل المدرك هو أيضًا الذي يميز الحق من الباطل، والحسن من القبيح، والخير من الشر. وفي هذا السياق نفهم قوله تعالى:﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العَنكَبُوت : 43]

وفي الإنجليزية، جاءت الكلمة الحديثة mind من الكلمة الإنجليزية القديمة gemynd، والتي تعني "الذاكرة، والفكر"، ثم اتسع المعنى ليشمل جميع القدرات العقلية. ويبقى المعنى الأصلي في تعبيرات مثل call to mind و keep in mind (أي: تذكر). وتشمل الكلمات ذات الصلة الكلمة اليونانية القديمة μένος، والكلمة اللاتينية mens، والكلمة السنسكريتية manas، والكلمة الألمانية القديمة gimunt.

العقل بالمعنى الفلسفي

العقل قدرة من مستوى أعلى على اكتساب قدرات عقلية. ويشمل الظواهر العقلية مثل الوعي، والإدراك، والفكر، والذاكرة، والانفعالات، والإحساسات، والمشاعر، والدوافع، والاختيارات. إذا نحّينا جانبًا المعاني العامة للعقل التي مؤداها أن العقل قدرة على اكتساب قدرات عقلية، وأنه قوة للنفس تشمل الحواس الظاهرة والباطنة، وأنه ملَكَة يدرك بها الإنسان حقائق الأشياء، وجدنا الفلاسفة والعلماء يختلفون حين يريدون تصوير طبيعة العقل. فقال أمثلهم طريقة إن العقل شيء غير فيزيائي مثل النفس (أو هو النفس عند ديكارت)، وهو جوهر متميز عن الجسم، وهذه هي ثنائية الجوهر. وجاء فلاسفة آخرون ورفضوا الثنائية، وأنكروا على ديكارت وأتباعه طريقتهم المثلى. وذهبوا إلى أن العقل ليس شيئًا، وإنما هو استعداد للسلوك، وهؤلاء هم أنصار السلوكية. وقال بعضهم إن العقل شيء فيزيائي هو المخ، وهؤلاء هم أصحاب نظرية

الهوية. وقال بعضهم من الأفضل فهمه بوصفه مجموعة من الوظائف بدلًا من أن يكون شيئًا، وهؤلاء هم أتباع الوظيفية. وأنت تلاحظ أن العقل في الفلسفة الحديثة في جانبها البارز كان مطابقًا للنفس، وكان مركز التفكير الواعي والإرادة الحرة، وكل ذلك يأتي في إطار المثالية. ولكن العقل في الفلسفة المعاصرة غلبت عليه النظرة المادية، فصار سلوكًا، أو مخًا، أو مجموعة من الوظائف.

2. فلسفة العقل: تعريفها وموضوعاتها

تدرس فلسفة العقل طبيعة العقل والحالات العقلية، وعلاقة العقل بالجسم. وتجيب على أسئلة من قبيل: ما الوعي؟ وما القصدية؟ هل العقل الواعي فيزيائي أم غير فيزيائي؟ كيف يمكن لأفكارنا أن تمثل الأشياء في العالم؟ كيف ترتبط خبراتنا العقلية الذاتية -بما في ذلك أفكارنا وإحساساتنا وانفعالاتنا- بالحالات الفيزيائية لأجسامنا وأمخاخنا؟ كيف ينسجم الوعي مع العالم الفيزيائي؟ هل يستطيع العلم أن يكشف لغز الوعي؟ هل الحيوانات واعية؟ هل الكلاب مجرد آلات، كما قال ديكارت، أم أنها تختبر العالم؟ وماذا عن النباتات؟ هل يمكن أن تكون الروبوتات وأجهزة الكمبيوتر واعية؟ هل يمكن للتكنولوجيا المتقدمة أن تنقذ عقلك وتحوله إلى وسيط هندسي عن طريق تحميل عقلك على السحابة؟ كيف ستؤثر التكنولوجيا المستقبلية في العقل؟

ولعله من الصواب أن نحدد بداية موضوعات فلسفة العقل ونصنفها في مجموعات هي:

1. طبيعة العقل
2. العقل والجسم
3. الحالات العقلية
4. الوعي
5. القصدية
6. العقل والذكاء الاصطناعي
7. معرفتنا بالعقل

8. السببيَّة العقلية

9. الهوية الشخصية

10. حرية الإرادة

تثير طبيعة العقل جملة تساؤلات أبرزها: ما هذا الشيء الذي نسميه عقلًا؟ هل هو شيء فيزيائي مثل المخ، أم أنه شيء غير فيزيائي؟ وهل هو شيء على الإطلاق؟ وهل من الأفضل فهمه بوصفه عملية أو مجموعة من الوظائف بدلًا من النظر إليه بوصفه شيئًا؟

والسؤال الرئيس في مشكلة العقل والجسم هو: كيف يرتبط العقل بالجسم؟ أو كيف نفهم العلاقة بين ما هو عقلي وما هو فيزيائي؟ وتتفرع عنه أسئلة أخرى من قبيل: ما العلاقة بين الخصائص العقلية والخصائص الفيزيائية، وما علاقة المخ بالعقل؟

تعود المناقشات المعاصرة حول مشكلة العقل والجسم إلى كتابات رينيه ديكارت في القرن السابع عشر. لقد دافع عن نوع من الثنائية مفادها أن العقل جوهر غير مادي ماهيته التفكير، والجسم جوهر مادي ماهيته الامتداد. ومن خلال تعريف العقل في حدود الفكر والوعي وتعريف الجسم في حدود الامتداد، رأى ديكارت أنه يستطيع أن يتصور عقله بشكل واضح ومتميز من دون جسمه، وجسمه من دون عقله. واستمر في استنتاج أن عقله وجسمه يمكن أن يوجد الواحد منهما من دون الآخر، ومن ثم فإن العقل والجسم جوهران متميزان بشكل أساسي. ويُعرف هذا الموقف باسم ثنائية الجوهر.

ولكن تاريخ فلسفة العقل يخبرنا بأن مناقشة قضايا العقل تعود إلى الفلسفة القديمة مع أفلاطون، مثلًا، الذي ذهب إلى أن النفس يمكن أن تكون منفصلة عن الجسم. وفي الفلسفة الإسلامية في العصر الوسيط، برهن الفارابي على تميز النفس من خلال إدراك المعاني الكلية والمعقولات، وهو إدراك ليس من خواص الجسم. والشيء المحقق أن ابن سينا قد سبق ديكارت في تجربة فكر تصور العقل أو النفس بوصفها توجد بلا جسم.لم يقف ابن سينا عند إثبات وجود النفس ومغايرتها للجسم، بل تخيل تجربة فكر "الرجل المعلق في الهواء". لقد تخيل رجلًا معلقًا في الهواء دون أي وعي بجسمه أو محيطه الفيزيائي، لكنه مع ذلك يعلم بوجوده. وهناك طاحونة ليبنتز، وهي تجربة فكرية ابتكرها جوتفريد فيلهلم ليبنتز. مثل ابن سينا وديكارت، رفض ليبنتز الفيزيائية

التي تعد العقل ظاهرة فيزيائية. لقد تخيل نظامًا فيزيائيًّا (ربما مثل المخ) متضخمًا إلى حجم يمكننا السير داخله وملاحظة أجزائه، تمامًا كما يمكننا السير في طاحونة الحبوب وملاحظة دوران العجلة وأحجار الطحن. ورأى ليبنتز أن مثل هذه الملاحظات لن تكشف عن وجود ظواهر عقلية مثل الإدراكات الحسية.

ويطرح التمثيل العقلي سؤالًا جوهريًّا: كيف يمثل العقل الأشياء؟ وتتفرع الإجابة عنه إلى قضيتين هما الوعي والقصدية. متى يبدأ وعي المرء؟ هل يظهر عند الولادة أم أنه موجود في رحم الأم؟ ما أن يخرج المولود حتى تأتيه المثيرات من كل جانب، أضواء ساطعة وأصوات عالية ونحو ذلك. ثم تمضي به الحياة الواعية باستثناء النوم العميق أو التخدير إلى أن يواجه الموت. يقول الماديون إن الموت هو نهاية الوعي. وينظرون إلى خبراتنا الواعية بوصفها جزءًا من الطبيعة شأنها في ذلك شأن أجسامنا، وعندما تنتهي الحياة، سينتهي الوعي أيضًا. أما أصحاب الإيمان الديني فيسلمون بحياة أخرى للنفس. ما الوعي؟ وكيف يرتبط الوعي بالعالم الفيزيائي؟ وما أنواع الأشياء التي تكون واعية؟ كيف نستطيع أن نعرف ما إذا كان الشيء واعيًا؟ وهل الوعي ظاهرة واحدة أم ظواهر كثيرة؟ وما وظيفة الوعي؟ وما نظريات الوعي؟ ما دور الوعي في الفعل؟ هل الانفعالات واعية دائمًا؟ ماذا يخبرنا التأمل عن الوعي؟ كيف يمكننا معرفة متى يكون مريض ما بعد الغيبوبة واعيًا؟ وما المشكلات الأخلاقية التي تنشأ في مثل هذه الحالات؟

استردت دراسة الوعي شرعيتها في أواخر القرن العشرين بوصفها موضوعًا علميًّا بعد أن كانت تأملًا فلسفيًّا. وفي الوقت الحاضر، يشتمل علم الوعي على مزيج متعدد التخصصات يجمع بين وجهات النظر العصبية والفلسفية والحسابية والتجريبية والسريرية. وتسمى البحوث التي يجريها هذا المشروع المشترك "دراسات الوعي". بدأت الدراسة العلمية للوعي بالبحث عن المتلازمات العصبية، ثم تطور الأمر إلى البحث عن نظرية علمية للوعي. وليس من شك في أن أي تقدم في دراسة الوعي سوف يساعد في إعادة صياغة فهمنا لمكانتنا في الطبيعة، وتعجيل المعالجة السريرية لكثير من الاضطرابات النفسية والعصبية.

وفي القصدية نتساءل: ما القصدية؟ وما الحالات القصدية؟ وهل كل الحالات العقلية تظهر القصدية؟ وهل كل الحالات العقلية وحدها هي التي تظهر القصدية؟ وما علاقة القصدية بالوعي؟

أما موضوع العقل والذكاء الاصطناعي فيطرح علينا أسئلة جديدة ومستقبلية: هل تستطيع الآلة أن تفكر؟ هل تملك الآلة عقلًا؟ هل العقل برنامج كمبيوتر؟ كيف نميز بين العقلية البشرية والذكاء الاصطناعي؟ وإذا صح أن عقولنا يمكن أن تمتد إلى ما وراء الجمجمة، فهل يمكن تحميل العقل على جهاز كمبيوتر؟ وهل سيكون هذا شكلًا من أشكال تكنولوجيا الخلود؟ وهل ستكون الآلة التي تحمل عقلك واعية بالفعل؟ وهل ستكون أنت حقًّا؟ وإذا كنا قادرين على استخدام التكنولوجيا لتمديد العقل أو تحميله، فهل يمكننا استخدام التكنولوجيا لدمج عقولنا مع الآخرين؟

ويقوم موضوع الحالات العقلية على تصنيف هذه الحالات وبيان علاقاتها. ويتساءل: هل الآلام أحداث حسية فقط؟ أم تنطوى أيضًا على عنصر باعثي مثل النفور؟ وهل يمكن أن توجد آلام لا نعيها؟ وهل الانفعالات مثل الغضب والغيرة تتضمن بالضرورة كيفيات محسوسة؟ وهل تتضمن عنصرًا إدراكيًّا مثل الاعتقاد؟

يمكن تصنيف الحالات العقلية إلى أربع فئات على وجه التقريب هي:

1. الإدراكات الحسية perceptions مثل الرؤية، والشم، والسمع، واللمس.
2. الإحساسات sensations مثل الجوع، والظمأ، والألم.
3. الانفعالات emotions مثل الغضب، والسعادة، والحب، والحزن، والقلق، والفزع، والضيق.
4. الأفكار thoughts مثل الاعتقادات، والرغبات، والأحكام، والشكوك. وتسمى هذه الفئة المواقف القضوية.

يتساءل الفلاسفة عن وجود هذه الحالات، وهل هي حالات للمخ أم حالات لعقل غير فيزيائي؟ هناك بعض الملامح العامة التي تميز الحالات العقلية من قبيل: (Ravenscroft 2005: 2-3)

1. بعض الحالات العقلية تسببها حوادث في العالم. على سبيل المثال، ألم محمد (حالة عقلية) يسببه الجلوس على طرف مسمار في المدرج (حادثة في العالم).
2. بعض الحالات العقلية تسبب أفعالاً. على سبيل المثال، رغبة محمد في تناول علبة من عصير الفاكهة (حالة عقلية)، بالإضافة إلى اعتقاده بوجود علبة عصير فاكهة في الثلاجة (حالة عقلية)، جعلته يذهب إلى الثلاجة ويأخذ علبة (الفعل).
3. بعض الحالات العقلية تسبب حالات عقلية أخرى. على سبيل المثال، الألم الذي عاناه محمد عند علاج ضرسه (حالة عقلية) جعله خائفًا من أطباء الأسنان (حالة عقلية أخرى).
4. بعض الحالات العقلية واعية. بمعنى أن بعض الحالات العقلية لها إحساس ذاتي أو خبرة ذاتية أو كيفية. قارن مثلاً الحالة العقلية لشخص لديه حاسة شم عادية بحالة عقلية لشخص يعاني من ضعف حاسة الشم. عند السؤال عن تمييز روائح معينة، فإن الخبرات الشمية للشخص العادي تكون مختلفة عن الخبرات الشمية للشخص الذي يعاني من ضعف حاسة الشم. خبرات المتكلم ذات كيفية معينة يفتقر إليها الشخص الثاني. وكان هناك اعتقاد أن كل الحالات العقلية واعية، وأن الحديث عن حالة عقلية لا واعية هو تناقض ذاتي في رأي ديكارت. ولكن البحوث الحديثة تؤكد عدم صحة هذا، وتذهب إلى أن المرء ربما تكون لديه رغبة غير واعية. والقول إن بعض حالاتنا العقلية تحدث بصورة غير واعية يمثل فكرة أساسية عند فرويد وأتباعه.
5. بعض الحالات العقلية تكون حول أشياء في العالم. وهذا يعني أنها تمثل العالم بوصفه موجودًا بطريقة معينة. على سبيل المثال، اعتقاد محمد أن أهرامات الجيزة ثلاثة وأكبرها خوفو هو اعتقاد حول أهرامات الجيزة، ويمثلها بوصفها ثلاثة وأكبرها خوفو.

6. بعض أنواع الحالات العقلية ترتبط ارتباطًا نسقيًّا بأنواع معينة من حالات المخ. مع التقدم المتزايد في علم الأعصاب، استطاع العلماء الكشف عن وجود علاقات بين الحالات العقلية وحالات المخ.

وتدور معرفتنا بالعقل على فكرتين هما معرفتنا بعقولنا الخاصة، ومعرفتنا بالعقول الأخرى، وتسمى هذه الفكرة الثانية "مشكلة العقول الأخرى"، وهي جديرة بدراسة مستقلة في العربية. زد على ذلك مشكلة حرية الإرادة، والذات ومعايير الهوية الشخصية، والوعي الحيواني، ونحو ذلك من موضوعات يعالجها فلاسفة العقل هذه الأيام.

تأمل مشكلة الهوية الشخصية. ما معايير الهوية الشخصية؟ ما الذي يجعلني الشخص الذي هو أنا رغم مرور سنوات العمر واختلاف خبرات الحياة؟ الجواب عند أصحاب ثنائية الجوهر أن الهوية تتحدد كلية عن طريق استمرار الجوهر العقلي أو النفس ذاتها. استمرارية جوهري العقلي تضمن استمرارية هويتي. وربما تسأل: هل الجسم جوهري لهويتي؟ هب أن المرء يستيقظ فيكتشف نفسه في جسم كائن آخر، مثلما يحدثنا فرانز كافكا في قصة "المسخ" عن الفتى جريجور سامسا الذي استيقظ ذات صباح فلم ير نفسه كم رآها قبل أن ينام، وإنما رأى صورته قد مسخت إلى حشرة كبيرة قذرة. ومع ذلك يظل محتفظًا بشيء من عقله وقلبه وفكره وشعوره، ويرى مكانه بعد المسخ من أهله. يحس بفتور الحنان في قلب أمه، وتناقص العطف في قلب أخته، وينتهي به الحال إلى موت سخيف. إذا لم يكن الجسم هو الذي يجعل ذاتي نفسها، فما الشيء الذي يجعلني الشخص الذي هو أنا؟

مشكلة الهوية قديمة قدم الفلسفة، وهناك ألغاز فلسفية حول الهوية لعل أشهرها سفينة ثيسيوس. لكن الهوية الشخصية حظيت بعناية بارزة مع جون لوك في القرن السابع عشر. فقد تناولها في كتابه "مقال حول الفهم البشري" في فصل بعنوان "الهوية والتنوع" عندما طرح سؤالين: ما طبيعة الأشخاص؟ وما الذي يفسر هوية الشخص عبر الزمن؟

انقسم الفلاسفة في مسألة الهوية الشخصية إلى ثلاثة اتجاهات. يمثل الاتجاه الأول أنصار نظرية النفس الذين يؤكدون أن هوية الشخص عبر الزمن تكمن في استمرار وجود النفس ذاتها. ويمثل الاتجاه الثاني أنصار النظرية النفسية الذين يقترحون أن هوية

الشخص عبر الزمن تكمن في حقائق نفسية، مثل اتصالات الذاكرة. ويمثل الاتجاه الثالث أنصار النظرية الفيزيائية الذين يقترحون أن هوية الشخص عبر الزمن تكمن في حقائق فيزيائية، مثل امتلاك الجسم نفسه.

وينتمي ديكارت إلى الاتجاه الأول، وينتمي لوك إلى الاتجاه الثاني، والحقائق النفسية الخاصة التي يركز عليها هي حقائق تتعلق بالذاكرة. لنفترض أننا تجاه شخص أ موجود في وقت معين ت1، وشخص ب موجود في وقت لاحق ت2. وفقًا لوجهة نظر لوك، فإن ب هو الشخص نفسه أ إذا وفقط إذا تذكر ب خبرة مر بها أ. ولكي يؤيد لوك وجهة نظره قدم تجربة فكر الأمير والإسكافي.

لنفترض أن رجلين يعيشان حياة مختلفة تمامًا في بلد ما. الأول أمير ثري. يقيم في قصر كبير مع بقية أفراد العائلة المالكة، ويجد من يقوم على خدمته، ويقضي أيامه في تناول ما لذ وطاب من الطعام، والمشاركة في أنشطة ترفيهية. والثاني إسكافي فقير. يقيم في كوخ متهالك، ويربي مع زوجته عدة أطفال. يقضي أيامه في إصلاح الأحذية، ولا يجد وقتًا للترفية. المال شحيح، والطعام يكفي بالكاد. وفي إحدى الليالي، يسكن وعي الأمير جسم الإسكافي. والفرد الذي يستيقظ في سرير الإسكافي ليس لديه أي فكرة عن مكانه. والمحيط الذي يحيط به غير مألوف تمامًا بالنسبة له. لا يتعرف على المرأة التي تنام بجانبه، أو الأطفال الصغار الذين ينامون في غرفة ثانية ضيقة. إن رداء النوم المهترئ الذي يجد نفسه يرتديه يختلف تمامًا عن الرداء الفاخر الذي كان يرتديه عندما ذهب إلى الفراش. يمكنه أن يتذكر أنه نشأ في القصر، وتناول الأطعمة الشهية، وكان الجميع في خدمته. لا يزال لديه الأفكار الأميرية التي كانت لديه دائمًا، لكن الجميع ينظرون إليه على أنه الإسكافي. يخاطبونه باسم ليس اسمه، ولا يبدو أن أحدًا يصدقه عندما يقول إنه الأمير. يعتقدون جميعًا أنه يمزح، ويوبخونه لتأخره عن العمل. تُرى من الذي استيقظ في سرير الإسكافي؟ هل هو الأمير أم الإسكافي؟ الجواب عند لوك أنه برغم أن الشخص لديه جسم الإسكافي، فمن الواضح أنه الأمير. (Locke 1961: Ch. xxvii)

وتعد حالة الأمير والإسكافي تأييدًا لنظرية الذاكرة في الهوية الشخصية. إن ما

يجعل الفرد في وقت ما هو الشخص نفسه كفرد في وقت آخر ليس النفس أو الجسم، بل استمرارية الوعي التي تمكن الفرد في وقت لاحق من تذكر خبرات الفرد في وقت سابق. وبرغم جاذبية نظرية الذاكرة، فإنها كثيرًا ما تعرضت للنقد. ومن بين الانتقادات المؤثرة التي قدمها توماس ريد في القرن الثامن عشر، تجربة فكر الضابط الشجاع في الجيش. ففي مهمة قتالية، أنقذ هذا الضابط وحدته وحصل على ميدالية مرموقة. ورغم أن الضابط يحظى الآن باحترام كبير، فإنه كان أشبه بالمجرم عندما كان صبيًّا، ويتذكر الضابط حادثة سرق فيها بعض التفاح من شجرة جاره. ومع تقدم الضابط في السن، أصبح جنرالًا، ثم تقاعد، وعندما تقاعد أصابه الخرف. وفي مرحلة معينة، يتذكر الجنرال المتقاعد فوزه بالميدالية، ولكنه لم يعد يتذكر سرقة التفاح أو أي شيء آخر من تلك الفترة من حياته. ويلاحظ ريد أن نظرية الذاكرة عند لوك تؤدي إلى تناقض. (Reid 2008: 113–18)

وعمل كثير من الفلاسفة في العصر الحديث على توسيع نطاق النظرية لتشمل أنواعًا أخرى من الروابط النفسية تتجاوز الذاكرة، مثل المقاصد والرغبات والاعتقادات. ولنتأمل البحوث المعاصرة التي تشير إلى أن الذاكرة والحالات النفسية الأخرى أكثر تجسيمًا مما كان يعتقد لوك. ففي حالات الصدمات الشديدة، مثلًا، لا يبدو أن الذاكرة هي حالة نفسية بحتة. وغالبًا ما نختبر ذكريات الماضي المؤلمة كحالات جسمية. عندما نفكر في هذا النوع من الحالات، فإننا نصل إلى استنتاج مفاده أن الذكريات تسكن الجسم؛ بل قد يميل المرء إلى القول إن الجسم يتذكر الصدمة. وعلى هذا فإن فكرة أننا نستطيع فصل الحقائق النفسية عن الحقائق المادية تمامًا كما تشير النظرية النفسية قد بدت غير معقولة. (Alter, Howell, and Kind 2024: 241-245)

وأنت ترى أن مشكلة الهوية الشخصية تستلزم النظر في الذاكرة. ما الذاكرة؟ ما التذكر؟ وما الذي نتذكره؟ يدور البحث في الذاكرة حول ثلاث مسائل مركزية ومترابطة. فأما الأولى فتتعلق بطبيعة الذاكرة بوصفها قدرة معرفية، وتناقش الطرق المختلفة لتمييز الذاكرة عن القدرات الإدراكية الأخرى، بالإضافة إلى التصنيفات المختلفة المقترحة للتمييز بين أنواع مختلفة من الذاكرة. وأما الثانية فتتعلق بما تفعله الذاكرة، والتي يُعتقد

تقليديًّا أن لها إجابة بسيطة: التذكر. ولكن الفلاسفة لا يختلفون فقط حول كيفية وصف التذكر، وإنما يختلفون أيضًا حول ما إذا كانت وظيفة الذاكرة هي التذكر بالفعل. وأما الثالثة فتتعلق بطبيعة ما نتذكره، وهو سؤال قد يشير إلى موضوع ذكرياتنا ولكن أيضًا إلى محتواها، مع اختلاف وجهات النظر حول كيفية توصيف العلاقة بين الاثنين.

زد على ذلك أن فلسفة الذاكرة تحاول الإجابة على أسئلة من قبيل: ما العلاقة بين الذاكرة والتخيل؟ وما وظيفة الذاكرة العرضية؟ وهل تمتلك الحيوانات غير البشرية ذاكرة عرضية؟ تؤدي الذاكرة دورًا مركزيًّا في فلسفة العقل ونظرية المعرفة والأخلاق. ومع ذلك، فإن فلسفة الذاكرة لم تظهر إلا مؤخرًا بوصفها مجالًا للدراسة والبحث في حد ذاتها.

3. النظريات الفلسفية في العقل

قدم فلاسفة العقل نظريات متنافسة لتفسير طبيعة العقل والحالات العقلية. وتكتسب أية نظرية أفضلية على النظريات الأخرى بقدرتها على تفسير أكبر عدد من من هذه الملامح تفسيرًا معقولًا ومسايرًا للبحوث العلمية الجديدة في مجال علم الأعصاب، وعلم النفس، ونحو ذلك. ويمكن تعديل هذه الملامح وفقًا لنتائج هذه البحوث أيضًا. ويأتي في مقدمة النظريات المتنافسة في فهم طبيعة العقل والحالات العقلية: الثنائية، والسلوكية، ونظرية الهوية (هوية العقل-المخ)، والنظرية الحسابية أو الوظيفية، والنزعة الاستبعادية، وسوف نعرض هذه النظريات بشيء من التفصيل. ونوضح في كل نظرية أفكارها الأساسية، وأبرز الفلاسفة الذين نادوا بها، والحجج التي تدعمها، والاعتراضات التي تقف في طريقها، ومدى قدرتها التفسيرية مقارنة بغيرها.

ويمكن تصنيف نظريات الفلاسفة في العقل إلى فئتين أساسيتين: النظريات الواحدية والنظريات الثنائية. تنقسم النظريات الواحدية إلى ثلاثة أنواع رئيسية: فأما الأول فهو المثالية القائلة إن كل شيء عقلي. ويمثلها جورج باركلي الذي رأى أن كل شيء موجود إما هو عقل أو يعتمد على العقل في وجوده، وتجلى ذلك في المبدأ المشهور: "الوجود إدراك". وأما الثاني فهو الفيزيائية القائلة إن كل شيء فيزيائي.

ثم يتفرع عن الفيزيائية فيزيائية النمط وفيزيائية النسخة، ويتفرع من فيزيائية النسخة الفيزيائية العارضية والوظيفية. وأما الثالث فهو الواحدية المحايدة عند وليم جيمس وبرتراند رسل، وتسمى واحدية رسل. رأى رسل أن الأشياء التي يتكون منها عالم خبرتنا ليست عقلًا ولا مادة، وإنما هي مصدر محايد سابق على العقل والمادة. وتكون الحالة المعينة عقلية أو مادية وفقًا للطريقة التي تُرَتَّب بها الحوادث. فإذا رُتِّبَت بطريقة ما، كانت مادة؛ وإذا رُتِّبَت بطريقة أخرى، كانت عقلًا.

وتنقسم النظريات الثنائية على وجه التقريب إلى نوعين هما ثنائية الجوهر وثنائية الخاصية. فأما ثنائية الجوهر فتقول بوجود جوهرين متميزين هما العقل والجسم. العقل ماهيته التفكير، والجسم ماهيته الامتداد. وأما ثنائية الخاصية فتقول إن الكائنات البشرية تتألف من جوهر فيزيائي واحد ونوعين من الخصائص: فيزيائية وعقلية. ويتفرع من ثنائية الخاصية نزعة الانبثاق التي ترى أن خصائص الأنظمة المركبة تكون منبثقة من خصائص مكوناتها، وأن الخصائص العقلية منبثقة وليست أساسية. ومذهب الظاهرة الثانوية الذي يؤكد على أنه لا توجد تفاعلات سببية تؤدي مما هو عقلي إلى ما هو فيزيائي، وأن خواصك وحالاتك العقلية هي شيء ثانوي. ومذهب شمول النفس الذي يرى أن العقول ليست مقصورة على البشر والحيوانات الأخرى، وإنما تمتلك النباتات والبكتيريا عقولًا أيضًا. وحتى الأشياء غير الحية مثل حبيبات الرمل وقطرات الماء لكل منها عقله الخاص. ربما يكون عقل حبة الرمل أبسط من عقل الإنسان، لكنه مع ذلك عقل. وخلاصة القول أن لكل شيء عقله الخاص.

4. علاقة فلسفة العقل بفروع الفلسفة والعلوم الأخرى

إذا تأملت الموضوعات المحورية في فلسفة العقل، مثل مشكلة العقل والجسم، والوعي، والقصدية، ومشكلة العقول الأخرى، وَهَلُمَّ جَرًّا، ستجد أنها مشكلات ذات أهمية بالغة في فروع أساسية في الفلسفة مثل الميتافيزيقا، ونظرية المعرفة، والأخلاق.

خذ الميتافيزيقا أولًا. تجد أنها تتناول أسئلة حول الوجود والهوية، وبنية الواقع وطبيعته. وتبحث في وجود الكائنات والأشياء، وكيفية وجودها. هل توجد في الواقع

مثل الأشجار والقطط والكلاب؟ أم توجد في الفكر مثل الأعداد، والقضايا، والزمان؟ يتساءل فلاسفة العقل: ما طبيعة العقل؟ وما علاقته بالمخ؟ وما أنواع الكائنات التي لها عقول؟ ما الذي يجعلك الشخص نفسه في سن الخمسين كما كنت في سن الخامسة عشرة؟ بعض أسئلة الحالات العقلية أسئلة ميتافيزيقية: ما نوع الأشياء التي هي أفكار، ورغبات، وإحساسات، وانفعالات، وما علاقتها بالحالات الفيزيائية لأجسامنا وأمخاخنا؟ وكيف تؤدى التغييرات في الحالات الفيزيائية إلى تغييرات في الحالات العقلية، والعكس صحيح أيضًا؟ وهل المخلوقات غير البشرية يمكن أن تتمتع بحالات عقلية أيضًا؟ كيف ينشأ الوعي، وهو سمة من سمات العالم العقلي، من المخ المادي؟ وأنت ترى أن بحث طبيعة العقل، وطبيعة الوجود المعتمد على العقل والمستقل عن العقل، يأتي في مقدمة الموضوعات التي تربط فلسفة العقل بالميتافيزيقا.

وتأمل نظرية المعرفة ثانيًا. تجد أنها تبحث في تحديد شروط المعرفة، وإمكانها، ووسائلها، وحدودها، ونحو ذلك. ثم لاحظ الصلة بين فلسفة العقل والمعرفة. إن وسائل اكتساب المعرفة، مثل الإدراك والاستبطان والاستدلال، هي قدرات عقلية. ولاحظ أيضًا الأسئلة الإبستمولوجية في فلسفة العقل: كيف نصل إلى معرفة حول عقولنا وحالاتنا الخاصة؟ إذا كنا نعرف عقولنا عن طريق الاستبطان، فهل الاستبطان وسيلة موثوقة؟ بالإضافة إلى معرفة وجود الأشياء التي نراها ونلمسها مثل الأشجار والطيور، هل يمكننا أيضًا معرفة وجود أشياء لا نستطيع رؤيتها ولمسها، مثل الأعداد والزمان؟ وكيف نكتسب هذه المعرفة؟ كيف يمكننا معرفة ما إذا كانت الكائنات الأخرى لديها عقول؟ كيف نعرف أن غيرنا من البشر لهم عقول مثل عقولنا؟ كيف نعرف ما إذا كانت القطط والكلاب والشمبانزي لديها حالات عقلية؟ وإذا كانت لديها هذه الحالات، فكيف نعرف أنها مماثلة لحالاتنا؟ وكيف نصل إلى معرفة حول حالاتنا الخاصة؟ كيف يرتبط الوعي بالعمليات النفسية مثل الإدراك والمعرفة؟

وتأمل الأخلاق ثالثًا. تجد أن الكائنات التي لها مكانة أخلاقية، والتي تنسب إليها الالتزامات الأخلاقية، هي كائنات لها عقول. وترتبط القيم الأخلاقية بالوعي ارتباطًا وثيقًا. من دون الوعي لن تكون هناك قيمة أخلاقية. إذا لم يكن الكائن واعيًا، فليس له وضع أخلاقي. وإذا كان واعيًا، فهو يتمتع بحالة أخلاقية. عندما يفقد الإنسان الوعي

تنتفي عنه المسؤولية الأخلاقية. والوعي هو الذي يضع الكائن في دائرة المخلوقات التي يجب أن نتجنب إيذاءها. ومن ثم ترانا في حاجة إلى معرفة أي الكائنات تكون واعية. ولذلك أخطأ ديكارت عندما نظر إلى الحيوانات بوصفها آلات، ورأى أن ضربها لا يمثل مشكلة ما دامت تفتقر إلى الوعي.

وأنت ترى أن فلسفة العقل تؤدي دورًا مركزيًّا في المشروع الفلسفي الواسع لفهم الواقع، والوسائل الإدراكية التي يتحقق بها هذا الفهم، ووضعنا الأخلاقي فيه. ومعالجة قضايا العقل من زاويا معرفية وميتافيزيفية وأخلاقية تسري في فصول هذا الكتاب سريان الماء في العود أو الزيت في الزيتونة.

بالإضافة إلى الاتصال مع فروع الفلسفة الأخرى، تمتعت فلسفة العقل أيضًا بتفاعلات قوية مع مختلف العلوم التجريبية في العقود الأخيرة، مثل علم النفس، وعلم الأعصاب، وعلم الكمبيوتر والذكاء الاصطناعي، ونظرية المعلومات، والعلم الإدراكي. والعلم الإدراكي دراسة علمية للعقل والظواهر العقلية، ويضم عدة فروع هي الفلسفة، وعلم النفس، وعلم الأعصاب، وعلم الكمبيوتر، والذكاء الاصطناعي، وعلم اللغة. ويسعى إلى تفسير العقل والتفكير في حدود برامج الكمبيوتر.

ويتجلى تعاون الفلسفة مع غيرها من العلوم المشار إليها فيما يعرف بدراسات الوعي. وأنت تجد التأكيد على هذا التعاون واضحًا فيما يكتبه العلماء الآن: "يجمع مركزنا بين علماء الأعصاب وعلماء النفس والأطباء النفسيين ومصوري المخ والباحثين في الواقع الافتراضي وعلماء الرياضيات والفلاسفة، وكلنا نحاول فتح نوافذ جديدة على أساس المخ للخبرة الواعية". (Seth 2021)

ركزت الدراسة العلمية للوعي على البحث عن المتلازمات العصبية للوعي. والمتلازمات العصبية للوعي للحالة الواعية هي الحد الأدنى من مجموعة الأحداث العصبية الكافية بشكل مشترك لتلك الحالة. وفي حين أن طريقة المتلازمات العصبية للوعي تعطي الأولوية للبحث عن المتلازمات بين نشاط المخ والوعي، تركز الطريقة النظرية بدلًا من ذلك على تحديد الروابط التفسيرية بين الآليات العصبية وجوانب الوعي. والبحث عن نظرية في الوعي مؤيدة تجريبيًّا هو الهدف الأساسي لعلم الوعي.

وأخص ما تمتاز به فلسفة العقل عن فروع الفلسفة الأخرى في الوقت الحالي أنها مدت الجسور إلى العلوم والمعارف الأخرى، وأن هذا الاتصال بالعلوم الأخرى يستبين فيها على نحو أوضح مما يستبين في غيرها من الفروع، وأنها بذلك قد أعادت للفلسفة مكانتها العالية في الفكر الإنساني. زد على ذلك أن الألغاز المتعلقة بالعقول والأشخاص تتمتع بجاذبية وجودية قلما نجدها في الفلسفة المجردة.

5. طرائق البحث الفلسفي في العقل

كيف يدرس الفلاسفة العقل؟ هناك مجموعة من المناهج والوسائل التي يستخدمها الفلاسفة لدراسة حياتنا العقلية، يأتي في مقدمتها الاستبطان، والحجج المنطقية، وتجارب الفكر. وسبيلنا الآن إلى توضيح هذه المناهج والوسائل بشيء من الإيجاز.

"الاستبطان" يعني حرفيًا "النظر إلى الداخل". وهي طريقة لمعرفة الحالة العقلية التي نكون عليها. فنحن نعرف حالاتنا العقلية، مثل الألم، عن طريق الاستبطان. أما معرفة الحالة العقلية للآخرين فتأتي عن طريق ملاحظة سلوكهم وأقوالهم. ويرفض السلوكيون، مثلًا، طريقة الاستبطان لمعرفة العقل بحجة أنها غير جديرة بالثقة وقد ضللتنا في كثير من الأحيان.

أراد بعض الفلاسفة في وقتنا الحالي تجاوز عيوب التأمل النظري وطريقة الاستبطان في دراسة العقل، ووجدوا ضالتهم في المناهج التجريبية. ويعرف هذا النوع من الفلسفة بالفلسفة التجريبية. والفلسفة التجريبية، التي تسمى اختصارًا X-phi، هي حركة فلسفية جديدة تكمل الأدوات التقليدية للفلسفة التحليلية بالأساليب العلمية للعلم المعرفي. ولذلك فإن الفلاسفة التجريبيين يخرجون في الواقع ويجرون تجارب منهجية تهدف إلى فهم الكيفية التي يفكر بها الناس عادة في القضايا التي تشكل أسس المناقشات الفلسفية. يستخدم فلاسفة العقل التجريبيون الأساليب التجريبية من أجل استكشاف البنية المعرفية والعمليات التي تشكل أساس حدسنا الفلسفي في موضوعات مثل الوعي، والإرادة الحرة، وعقلية المجموعة، ونحو ذلك.

وفيما يتعلق بالحجج، نجد أن الحجة في المنطق مجموعة من القضايا، إحداها

هي النتيجة، وبقية القضايا هي المقدمات. ويجوز أن تحتوي الحجة على مقدمة أو أكثر، وتقدم المقدمات تأييدًا للنتيجة. وتنقسم الحجج الصحيحة منطقيًّا إلى نوعين: حجج استنباطية وحجج استقرائية. ومن الاختلافات الأساسية بينهما أن الصحة في الحجة الاستنباطية لا تأتي بدرجات، فالحجة إما صحيحة أو باطلة. أما الحجة الاستنباطية فتأتي بدرجات مختلفة من القوة. ويركز الفلاسفة في تقييم الحجج على سؤالين مختلفين: هل تدعم المقدمات النتيجة؟ وهل المقدمات صادقة؟ معظم الحجج الواردة في الكتاب استنباطية. وعادةً ما تكون مثل هذه الحجج صحيحة، ومن ثم فإن الجدل حولها غالبًا ما يقوم على رفض إحدى المقدمات.

ولكن إذا لم نتمكن من معرفة ما هو ممكن عن طريق التجارب المعملية، فكيف نتعرف عليه؟ يلجأ بعض فلاسفة العقل إلى نوع مختلف من التجارب يسمى تجارب الفكر. تُجرى تجارب الفكر في الخيال. فنحن نتخيل موقفًا ما، ونراقب ما يحدث، ثم نستخرج النتائج الملائمة. وعلى هذا النحو، تشبه تجارب الفكر التجارب الحقيقية، إلا أنها تجارب في العقل. تجربة الفكر هي تجربة عقلية يمارسها الفلاسفة والعلماء وغيرهم لاختبار فرض معين عن طريق تخيل موقف وما يقال فيه. ويمكن العودة بتاريخها في الفلسفة إلى أسطورة الكهف عند أفلاطون، وربما قبل ذلك. وإذا كان استعمال الحجج المنطقية من الأمور الشائعة في الكتاب، فستجد كذلك كثرة من تجارب الفكر التي تصاحبك طوال الفصول من الأول مثل تجربة فكر الرجل المعلق في الهواء، إلى السادس مثل تجربة فكر الحجرة الصينية. وليس من شك في أن تجارب الفكر تكشف مزايا النظريات، وعيوبها، والتزاماتها الخفية. وهذا واضح في الدور الذي تؤديه في الجدل بين الثنائية والفيزيائية حول الوعي وطبيعة العقل، وفي الجدل حول ما إذا كان يمكن لأجهزة الكمبيوتر أن تمتلك الخاصة العقلية، ونحو ذلك.

6. بنية الكتاب

وضعت الكتاب على أسس منطقية تراعي بناء الأفكار في حدود المقدمات والنتائج، والكليات والجزئيات، والاتساق المنطقي بين الآراء والنظريات. ويأتي في عشرة فصول تسبقها مقدمة وتلحقها خاتمة. أوضحت المقدمة المقصود بالعقل، وما

يدور في فلكه من ألفاظ أخرى مثل النفس والجسم. ثم قدمت تعريفًا لفلسفة العقل وموضوعاتها الأساسية، وعلاقتها ببعض فروع الفلسفة، وألقت ضوءًا يسيرًا على كيفية دراسة الفلاسفة للعقل.

وتعالج الفصول الخمس الأولى بكثير من التفصيل طبيعة العقل، وعلاقة العقل بالجسم. يقدم لك الفصل الأول ثنائية الجوهر التي تنظر إلى العقل بوصفه جوهرًا متميزًا من الجسم، ويوضح الحجج المؤيدة لهذه الثنائية ونقد الفلاسفة لها. ويقدم لك الفصل الثاني العقل بوصفه سلوكًا من خلال مناقشة نقد السلوكية للثنائية، والصعوبات التي واجهت السلوكية. ويقدم لك الفصل الثالث العقل بوصفه مُخًا من خلال نظرية هوية العقل-المخ، ويناقش أيضًا ما يسوغ هذه النظرية في رأي أنصارها والمشكلات التي تعترض سبيلها. ويتناول الفصل الرابع استبعاد التناول التقليدي للعقل بالطريقة التقليدية، والتأكيد على ضرورة تناوله وفقًا لعلم الأعصاب، في مذهب المادية الاستبعادية والفلسفة العصبية. ويعالج الفصل الخامس العقل بوصفه مجموعة من الوظائف كما تنظر إليه الوظيفية، ويناقش على مهل حجج الوظيفيين وحجج خصومهم أيضًا.

ويبحث الفصل السادس نشأة الذكاء الاصطناعي، وافتراض العلم الإدراكي أن العقل برنامج كمبيوتر. يسعى الفصل إلى نقد الذكاء الاصطناعي القوي، وبيان أن العقل ليس برنامج كمبيوتر من خلال حجة الحجرة الصينية.

ويفحص الفصل السابع مشكلة الوعي بوصفها المشكلة الكبرى في فلسفة العقل. وحاولت فيه صياغة هذه المشكلة صياغة دقيقة، وبيان الاتجاهات الأساسية التي سلكها الفلاسفة والعلماء في دراستها، ثم ألقيت أضواء شارحة على تعريف الوعي، والمشكلة الصعبة للوعي، ووقفت على أبرز الأخطاء التي يقع فيها الفلاسفة عند بحث الوعي، ثم أوضحت المذهب الطبيعي البيولوجي، وفي نهاية الفصل تجد معالجة لملامح الوعي التي تكشف عن بنيته ووظيفته.

يقدم الفصل الثامن علم الوعي. ويبين نشأة الدراسة العلمية للوعي (دراسات الوعي). ويحلل طبيعة المخ وبنيته، وبنية الخلية العصبية ووظيفتها. ويوضح تطور دراسات الوعي من ستينيات القرن العشرين إلى الوقت الحاضر. ويبين كيف يؤدي

البحث عن مركز الوعي إلى دراسة المتلازمات العصبية للوعي. ويقدم النظريات العلمية الأساسية في الوعي مثل نظريات المستوى الأعلى، ونظريات مساحة العمل الشاملة، ونظريات المعلومات المتكاملة، ونظريات إعادة الدخول والمعالجة التنبؤية، ونظرية مخطط الانتباه.

ويبدأ الفصل التاسع بتعريف مفهوم القصدية، ثم يزيل نوعين من الخلط يحيطان بها: الأول يتمثل في الربط الجوهري بين القصدية والقصد (في معناه العادي) إلى درجة المطابقة بينهما، والصواب أن القصد صورة واحدة فحسب من صور القصدية الكثيرة. والثاني هو الخلط بين القصدية والمفهومية، والصواب أن المفهومية ليست كافية لوجود القصدية. وبعد ذلك فرغت لفكرة التمثيل بصفة عامة على أساس أن وظيفة القصدية هي التمثيل العقلي للأشياء ووقائع العالم وحالاته. والسبيل المفضي إلى فهم القصدية أو التمثيل العقلي لا بدَّ من أن يمر أولًا بالتمثيل التصويري ثم التمثيل اللغوي، وهما وسيلة إلي القصدية، ومن أراد الغاية، فقد أراد الوسيلة. وتاريخ مفهوم القصدية خليق بأن نلقي عليه نظرات متأنية من البحث في أصل المفهوم، وإحياء برنتانو له فيما يعرف بدعوى برنتانو. وتظفر هذه الدعوى بمناقشة تقف علي جوانبها المختلفة وتنظر في تأويلات الشراح لها، وتقبل واحدًا من هذه التأويلات أعتقد أنه الأقرب إلى الصواب.

ويناقش الفصل العاشر طبيعة القصدية وبنيتها. وتتجلى طبيعة القصدية من خلال شرح علاقة الاتجاه القصدي التي تثير سؤالين: هل كل الحالات العقلية تظهر القصدية؟ وهل الحالات العقلية هي وحدها التي تظهر القصدية؟ ويتضح من الإجابة عن هذين السؤالين نقد سيرل لدعوى برنتانو. ويوضح الفصل أيضًا القصدية بين المنطق والأنطولوجيا. وتتجلى بنية الحالات القصدية من خلال الكشف عن ملامحها الأساسية وهي أن الحالات القصدية ذات مضمون قصدي وشكل سيكولوجي، وأنها تملك اتجاهًا للمطابقة، وأنها تملك شروطًا للاستيفاء والنجاح، وأن قصدية الحالات العقلية باطنية وليست مشتقة. وتبين خاتمة الكتاب أن مذهبي في طبيعة العقل هو ثنائية الجوهر، وتوضح بعض التأملات العامة والأفكار المستقبلية.

ومنهجي في البحث هو المنهج التحليلي، وخاصة التحليل اللغوي والمنطقي، ولا

يكاد يخلو جزء من الكتاب إلا وتجد فيه استدلالًا منطقيًا. ولقد راعيت أيضًا الجانب التاريخي في عرض الأفكار والنظريات. وسوف تلاحظ أن هذه الدراسة تنطوي على موقف نقدي معتدل تجاه النظريات الفلسفية المعروضة في العقل، فهي لا تقبل عليها في تهور واندفاع، ولا تسرع إليها بتسليم واقتناع، ولا تلقاها بكثير من الإنكار لها والازورار عنها، وإنما تناقشها مناقشة هادئة أخص ما يميزها هو التروي والقصد وحب الفهم.

ولما كانت مشكلات فلسفة العقل من الموضوعات الجديدة والصعبة في العربية، وتحتاج إلى كثير من الأناة والصبر وحسن التأني، فقد جعلت أحد أغراضي من هذا الكتاب هو الإبانة والتجلية. إذ يقدم لك الأفكار الفلسفية والعلمية الصعبة في لفظ رائع رائق، وفي عبارات سهلة سائغة قريبة المنال. وليس من شك في أن التطورات التي طرأت على فلسفة العقل في الربع الأول من هذا القرن قد أدت إلى تغيير طبيعة هذا الموضوع بشكل كبير. ولذلك جعلت مناقشة كل ما هو جديد عن العقل في الفلسفة والعلم من بين أغراضي الأساسية من دراستي. لقد أنفقت السنوات الطوال في الإعداد لهذا الكتاب وفي تأليفه، وآثرت الأناة والتريث على التسرع والعجلة. وكنت طيلة هذه السنوات على يقين من أن جهدي سيكون في خدمة وطني وأمتي ولغتي، وفوق كل شيء إرضاء لربي.

وما أحب أن يظن بي الغلو في تقدير عملي، وما أحب أيضًا أن ينشأ جيل جديد من الباحثين لا يقدر هذا العمل حق قدره لأنهم لم يقفوا على تاريخه وتطوره. ولذلك أقول بكل ما يملكه المرء من تواضع إن أول كتاب يحمل عنوان "فلسفة العقل" في العربية كان كتابي الأول عام 2006، وإن هذا الكتاب قدم المشكلات الأساسية، والتيارت الرئيسة، والمصطلحات الدقيقة، والفلاسفة الكبار في هذا المجال. صحيح أنه كان يدور في الأساس حول جون سيرل، لكنني عالجت الأمر معالجة موضوع وليس أفكار شخص بعينه. وسبق هذا الكتاب دراسات مثل "فلسفة العقل عند فتجنشتين" 1996، و"جون سيرل ومشكلة المعنى" 2000، و"هل العقل برنامج كمبيوتر؟" 2005. أما كتابي الذي بين يديك الآن فهو جديد في كل شيء ما عدا اعتماده على موضوعين في الكتاب الأول هما نقد سيرل للذكاء الاصطناعي، وبعض جوانب فلسفة الوعي والقصدية.

إذا كان فهم الأفكار الفلسفية حول العقل خليقًا بالصبر والأناة، فإن هناك مسألة أساسية تقع من هذا الفهم عند الصدر والمحراب ألا وهي دقة المصطلحات. وليس يعنيني أن أصوب الترجمات الخاطئة، وإنما الذي يعنيني أن أبذل قصارى جهدي في ترجمة المصطلحات الجديدة، وأن أقدم لك في نهاية الكتاب ثبتًا كاملًا بالمصطلحات الأساسية في فلسفة العقل، وشرحها وارد في ثناياه بطبيعة الحال.

عندما كنت أنظر في كتب المخ، وجدت كتابًا اشترك في تأليفه عالم مصري هو الدكتور مختار جادو (1933-2016). Mokhtar H. Gado وأرى من الخير أن أذكر به جيل الشباب. ولد مختار جادو في المنوفية بمصر وتلقى تعليمه في جامعة القاهرة، وحصل على شهادته الجامعية عام 1949 وشهادة الطب عام 1953. وأكمل التدريب والإقامة في مستشفى جامعة القاهرة، ومستشفى أدينبروك في كيمبردج، إنجلترا، والمستشفى الوطني للأمراض العصبية في لندن، قبل الانضمام إلى معهد مالينكروت للأشعة في كلية الطب بجامعة واشنطن كزميل أول في علم الأشعة العصبية في نوفمبر 1970. وفي عام 1972 عُين جادو رئيسًا لقسم الأشعة العصبية إلى عام 1991 ليتخلى عن المهام الإدارية ويعين أستاذًا فخريًّا في 2013. يعد جادو باحثًا رائدًا في الأمراض العصبية، وقد أجرى بحوثًا متميزة في التصوير بالرنين المغناطيسي للمخ والعمود الفقري. ويشتهر ببحوثه في المظاهر الإشعاعية لمرض الزهايمر وتغيرات المخ لدى كبار السن، وفي ارتباط المبادئ الفيزيائية للرنين المغناطيسي بالتغيرات المرضية في العمليات المرضية للجهاز العصبي المركزي.

وحَقِيقٌ عَلَيَّ أن أُزجِي الشكرَ جزيلًا والثناءَ جميلًا إلى القائمين على مركز نماء للبحوث والدراسات على حسن رعايتهم لمؤلفاتي، وخاصة د. ياسر المطرفي، وجميع العاملين في فرع المركز بالقاهرة. وأسأل الله تعالى أن يتقبل عملي خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله نافعًا للناس. وهو سبحانه من وراء القصد.

مدينة 6 أكتوبر

في 28 ربيع الآخر 1446 /31 أكتوبر 2024 صلاح إسماعيل